

قيم السلم والتسامح في فكر وسلوك الأمير عبد القادر

أ. بلحنافي جوهر

قسم الفلسفة جامعة معسكر

مقدمة

يعتبر الأمير عبد القادر من الشخصيات البارزة التي تعد مضرًا للمثل في إنسانيته ، فإذا كانت الحروب تعرف بوحشيتها وصراعها الدموي ، فحين أن الأمير عمل على إخضاع القتال إلى بعض القواعد التي تملئها الاعتبارات الإنسانية ، كما أنه كان صوفي متفلسف مجدد لم ينزع ولم يكتف بالترفغ للتعبد بل ساهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية من خلال اهتمامه بأحوال الناس ومشاكلهم أينما حل ووجد وعمل على علاجها فقد عكس سلوكه نموذجًا لسمو الأخلاق لما تميز به من قيم السلم والتسامح، فكيف جسد هذه القيم؟ وكيف جمع بين السيف والقلم؟ إبعاد فكره؟.

أبعاد التصوف عند الأمير عبد القادر (1808 – 1883):

إن المتتبع لحياة الأمير عبد القادر يرى أن شخصيته الحقيقية تتحجب وراء اعتباره مقاومًا أكثر من الإشارة إليه كعارف، "بينما كانت حياته الفعلية كلها نوع من السر الروحي حتى وهو يمارس دوره في تسيير الشؤون العامة. فهو في صميمه كأنه غائب عن العالم، وهذا ما كان (ماكس فيبر)" لما يدعو النموذج المثالي للبراءة الدينية التي تكون في صميم الحياة الاجتماعية¹

"نشأ الأمير في مهد العلم والتقوى والتفوق بالأدب والفقہ والتوحيد والحكمة العقلية، ثم إنه كان من بيت فروسية، ومن تقاليدہ المتشاقفة بالسلاح وركوب الخيل وبذلك جمع الأمير بين السيف والقلم."²

وعرف كمناضل وطني قاد الحرب ضد المستعمرين الفرنسيين بعد تسميته أميراً في 22 أكتوبر 1832، ولكنه حاول في الوقت نفسه أن يعطي للحرب وجهاً إنسانياً، كما كان شاعراً وصوفياً، ومتكلماً فضلاً عن مسؤولياته كرجل دولة و حرب.³

عكس سلوكه سمو الأخلاقي، لما انطوى عليه من شيم النبل والعظمة، مما جعله محل بحث الدارسين لاستجلاء معاني القيم الأخلاقية النبيلة، وكيفية استفادة منها للتعامل بها في حياة الاجتماعية. كانت فلسفته قائمة على أساس أخلاقي قوامها رؤية الأمور من فوق المصالح الفردية، وتحمل صدمات الحياة وحوادثها بصفاء "أي فلسفة ترفع الإنسان فوق الطموح والثروة"، وتظهر فلسفة الأمير عبد القادر من خلال مصنفاته المتميزة في قسمين:

القسم الأول يضم رسالتين وهي: "المقراض الحاد". وذكرى العاقل وتنبيه الغافل

أما القسم الثاني يتمثل في "المواقف".

ويظهر من خلال مصنفاته تأثره بالفلسفة اليونانية سقراط وأفلاطون وأرسطو وفيتاغورس وطاليس وكذا بفلاسفة الإسلام كالطبري وابن خلدون اللذان اعجب بهما وكذا الغزالي وغيره.

ففي كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" في بابه الأول المعنون ب "فضل العلم والعلماء" وفيه فصل تعريف العقل الذي به يتم إدراك العلوم وتكامل القوى الأربع" إذ اعتدلت في الإنسان يكون الإنسان كاملاً".⁴ أكد الأمير عبد القادر على شرف طلب العلم وضرورة اتسام الفرد بهذه الخاصية إذ يقول في ذكرى العاقل وتنبيه الغافل "إن التعايش المتناسق بين هذه الفضائل الأربع تفتح للإنسان بشكل مؤكد طريق الكمال. غير أن غيابها التام ينزع منها صفة الإنسان وتطرده من الجماعة." وقد شبه الإنسان الجاهل الفاقد للعلم بالمرضى حيث يقول "فإن القلب إذا كان صحيحاً لا يستلذ إلا بالعلم، فإذا كان مريضاً بسوء العادات واستلذ بغيره... وكالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل فيه فيراه مرأ"⁵ فالعلم هو أساس الخلق الحسن وأساس النهضة الاجتماعية .

أما القسم الثاني الخاص بالمواقف يتضح فيه فكره الصوفي وقد تناول فيه الأمير التنزيه الإلهي من خلال تناول الوجود وخالق الوجود، كما يتناول فيه طبيعة البحث عن الحق إذ يقول الأمير في الجزء الثاني من المواقف "عن طالبي الهي يقتضي ذلك وجوباً إلهياً طلبه الحق منهم، وذكر تعالى أنه

أوجب على نفسه لهم ما أوجب كان مثل الوجوب الأول، ذكر الحق تعالى من جهة أخرى أن من رأى من أن الطريق، أنهم استوجبوا على ربه أن يكونوا أهلاً لهذه المجالس يبدنهم مراكزهم، أي أجسامهم التي هي المراكب لأرواحهم، فإن أرواح التي تسمى الحكماء بالنفوس الناطقة كالمراكب والأجسام بما اشتملت عليه من القوى الظاهرة والباطنية كاللذات المركوبة فاستوجبوا هذه المجالس يبدنهم مراكزهم بالرياضات النفسية والمجاهدات الظاهرة البدنية... طلباً للمواصلة بالحق، لأن مرتبة الألوهة لاغني لنا عنها وعبر عن هذه المسألة باللطيفة والدقيقة... وهي من علوم الأذواق والأحوال، فهي تعلم ولا تقال ولا تأخذها حدود وان كانت محدودة... لأن لأهل الطريق فيما بينهم الحق تعالى - من علوم تفاوتت لا ينحصر ولا يضبط.⁶ وبين الأمير في هذا أن غاية هذا البحث هي طلب الحق والمواصلة بالحق غير أن لبلوغ هذه الغاية لا بد من التزام بصفات الحق الصفاء والطاهرة والسلوك الحسن الذي تكون بالرياضة والمجاهدة واكتساب العلوم والمعارف، اهتمام بتوسيع أفق المسلم كانت من غايته، لترويض السلوكات الغريزية للارتقاء بها لفعل الخير وتجنب الشر تلك هي أهم تطعاته

البعد الأخلاقي في التصوف الأمير عبد القادر تربية النفس:

كان الأمير شغوفاً بموضوع الأخلاق فكراً وممارسةً وازداد هذا الاهتمام بعد فترة هجره لسيف ومقاومة غير أن المتبع لسيرة حياته يلاحظ أن فكر الأمير كان دائماً مغموراً إما بالبحث الأخلاقي أي بالبحث على الدوام عن صفاء الأخلاقي، لذلك ربط بين التصوف والمجاهدة وقد حذر الأمير المتصوف الذي يجاهد نفسه بالمكابدة الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك أو لصرف وجوه العامة إليه أو حصول غنى أو نحو ذلك، كما يرفض أن تكون دوافع عبادة الإنسان قائمة وعلى أغراض نفسية لتحقيق حظوظ شهوانية لذا يمكن تلخيص "مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر أنه يتجلى في حماد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله تعالى والحضور الدائم مع الله تعالى".⁷

يقوم التصوف على العلم ويقصد بالعلم هو معرفة بالنفس وأحوالها حتى يتحقق إخلاصها لله لنا يقول: "إن كل من لم يسلك طريق القوم، وهم المتصوفة ويتحقق بعلمهم حتى يعرف نفسه لا يصح له الإخلاص ولو كان أعبد الناس وأروعهم وأزهدهم وأشدهم هروباً من الخلق...⁸ فللمعرفة بالنفس تتحقق عن طريق المواظبة على العبادات والإقبال على أمر به الحق من الفرض والنوافل، حتى يصل

إلى الكشف واليقين بمجاهدة النفس وتنقيتها من الأدران والشور. غير أن تصوف الأمير لم يتحدد في انزاعه عن الحياة الاجتماعية ولبس لباس الصوف، وإظهار الزهد والتفرغ للعبادة فقط "فهو يرى أن الوجود أو الحضور في العالم يستلشق في كون المتصوف بوجه عام يضطلع بمسؤولياته الاجتماعية ويمارس وظيفته الأمر الذي يجعله في اتصال وثيق ويومي مع أمثاله ويتجلى تأثيره بشكل بطيء ومستمر عن طريق القدوة والعظة والمتصوف، قاس تجاه نفسه ويخضع ذاته لنظام قاس ويدعوا للزهد وقد يذهب به الأمر إلى حد إماتة الجسد كي يجعل من ذاته أداة طبيعة ومناسبة لرسالته العظمى".⁹

تنطوي ميوله إلى الحياة الاجتماعية على حرص عام وتبجيل للجنس البشري ولكي ينتشل النفوس من خطاياها وبلوغ القلوب بمتنع عن كل عنف، لأن عنف ينفر ويبعد الغير وسيكون متسامحا ومتفهما ولطيفا وصبورا جدا.¹⁰ تميز تصوف الأمير عبد القادر عن غيره كونه يعتبر أول من جمع بين الجهاد والتصوف تجلى ذلك من خلال دراسة مراحل حياته أي تصوفه يظهر في مقاومته للعدو، وفي سجنه وفي منفاه، كما عبر عنه في معاملاته وفي كتاباته ولقاءاته ومواقفه وفي دفاعه عن المظلومين بدون تميز، ومساعدته للفقراء والمحتاجين.

لقد كان جهاد النفس هو أساس تصوف الأمير بحيث كان يرى "أن المتصوف لا بد له من أن يكون في جميع أحواله وتصرفاته حاضرا مع الله تعالى، وبذلك يكون له علم بمعرفة النفس وأحوالها حتى يتحقق إخلاصها لله وممارسة الرياضات الشاقة وهذا سيؤدي حتى إلى جهاد النفس".¹¹ وقد عبر الأمير عن مجاهدته هذه في المواقف 83 بقوله "ومن بعض نعم الله تعالى علي أنني مقدر رحمة الله بمعرفة نفسي، ما كان الخطاب لي والإلقاء علي، إلا بالقرآن الكريم العظيم".¹²

فكتاب المواقف مدونة أخلاقية، أكد فيها خاصة على إشكالية جهاد النفس عن طريق التخلية والتخلية فهو الجهاد الأكبر وجهاد العدو، لا يكون خالصا إلا إذا كان منبثق عن جهاد النفس.

حيث ركز على عنصر الأخلاق الذي يجب أن تتحدد المعاملات إلا بمقتضاه فهو منبعها وغايتها لذا فقد ميز بين الخلق في صورته العامة لهيئة النفس وصورتها الباطنة، ففي مصدر القيم كالوفاء، والصدق والغدر والكذب وبين الحسن أو السلوك الذي يكون مصدر الخير (الفعل الأخلاقي الحسن).

فعلى الرغم أن الدين هو أساس الأخلاق عند الأمير إلا أن ممارسة الأخلاقية في نظره لا يكون لها أية قيمة إلا إذا لم تكن من منبثقة من العلم والمعرفة حيث يقول "إن جميع الحيوانات تنشد المتعة بوصفها كذلك، فإن المتعة لا يمكنها أن تشكل غاية أخلاقية لأن كل غاية أخلاقية يجب أن تضطلع بشرط مزدوج، الاستجابة للطبيعة الخاصة للإنسان وضمان ترقيته اللامحدودة عن سبيل الكمال والعلم وحده هو الذي يستطيع أن يهب الإنسان متعة من هذا القبيل فهو الذي يسخر قدرته الكبرى والأكثر تميزاً للفكر فالعلم يعني بالنسبة إلى روجه إثناء لا حدود له ومتعة لا تبعث على الضجر إطلاقاً." 13

جعل الأمير العلم والمعرفة هما أساس ارتقاء الإنسان إلى كمال، فالخير يفقد قيمته ومعناه بدون العلم والمعرفة. فالأمير كان يبتغي القرب الخالق، فيقدر محبة الخالق والشوق إلى التقرب إليه بقدر ما يزداد حبه إلى معرفته بالحبيب المطلق وواجب الوجود حيث يقول:

وإن قلت يوماً قد تدانت ديارنا لأسلو عنهم، زادني القرب أشجاناً

فما القرب لي شاف ولا البعد نافع وفي قربنا عشق، دعاني هيأنا¹⁴

فلقد ملأت محبة الخالق قلب الأمير وهذه المحبة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها ونعمة عطائها هي التي أشعلت في قلبه نار الشوق لمعرفة الحبيب والتقرب منه

السمو الخلقى في تصوف الأمير عبد القادر:

إذا كان المعنى الباطني لتصوف قائم على مجاهدة النفس بالرياضة الشاقة والاهتمام بالعلم والمعرفة حتى يكون مصدر السلوك الأخلاقي الخير، النابع من محبة الخالق، هذا بمحبة معرفته والتقرب إليه، غير أن تصوفه لم يكن مصدر انقطاع عن الدنيا وابتعاد عن الناس والهروب عن مسؤولياته الاجتماعية. بل كان له تجلى وانعكاس ظهر في سلوكه وتعامله مع غيره مما جعل الأعداء يشهدون له بالعدل والسمو الأخلاقي.

حيث قال عنه ليون روش: "حين يصلى هو صوفي، حين يقود هو سلطان حين يتكلم حرباً، خطوط وجهه تضاء، فهو عندئذ عسكري وحين يتحدث مع أصدقائه والمقربين منه تظهر طبيته

صريحة ومنفتحة، بل إن له حتى ميلا للدعابة." ¹⁵ فتصوفه قام على وتقيد بالكتاب والسنة واهتمام بالتربية والأخلاق، لذا فقد كان يشجع على بحث عن العلم وحبه، كما كان يشجع على حفظ الكتب احتوت زمائلته على أكبر مكتبة، حيث كان يشجع على طلب العلم حتى في مرحلة الجهاد والحرب، لأنه كان يؤمن بأن العلم هو منبع النهضة وتطور الحضارة.

وقد عبر عن ذلك بقوله في رسالة وجهها إلى الملكة الفرنسية "اقنعي نيابة عني الملك فبدلاً أن يبعث إلى الأبناء الاماجد للحرب، يبعثهم لمساعدتي على إرساء قواعد حضارة تكوينين قد ساهمت فيها" ¹⁶

اتسم تصوف الأمير بمبادئ أخلاقية سامية تجلت في ممارسته لها في حياته، كما نادى بها للناشئة من بعده بأخذ العبرة والإقتداء بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي هذا يقول في كتابه المواقف "إن الله سبحانه وتعالى يرى ويصير جميع الأشياء حال عدما وحال إيجادها، وإذا كان الجسد في المسجد والقلب في السوق أو الجسد في أحد الأماكن الشريفة مكة أو المدينة أو بيت المقدس بمعنى انه لا يبالي به حتى يتوجب إليه بالنظر الخاص والرؤية الخالصة ليفيض عليه من خبراته وأنواع كرامته وتحليته إذ الإنسان ما حصل له الشرف على جميع المخلوقات بحسن شكله وصورته، فإن الصورة في الحائط أو الورق مثله، ولا يكبر جسمه فإن الفيل أكبر منه، ولا بشجاعته، فإن الأسد أشجع منه، فما كان له الشرف إلا بإنسانيته وهي قلبه". ¹⁷

كان قلبه يشع بالعبو والإنسانية ومكارم الأخلاق حيث تجلت هذه في سلوكاته، بحيث يروى عنه "أن ذات يوم تقدم زنجي مسكين رشاه شخص ما كي يقتل الأمير غير أنه تسمر في مكانه عند رؤية عبد القادر وهو يرأس مجلسا شامخا عزيزا وهادئا وبسيطا، فاعترى الزنجي الندم فأخذ يكسر خنجره، وارتقى عند رجل الأمير قائلا "كنت أتأهب لقتلك غير أن مظهرك جعلني أعزل لأني توسمت حول رأسك هالة الرسول." نهض عبد القادر بوقار وبرودة أعصاب، ثم وضع يده على جبين المسكين دخلت هاهنا قاتلا، والله الذي يرض على التوبة قد قضى أن تخرج وقد أمسيت رجلا آمينا". ¹⁸

لقد مثل اتجاهه نهضة صوفية كان لها أثر البين عن طريق القدوة أكثر منه بالعبظة والكتابة إذ شكلت الإرهاصات الأولى للحركات الإصلاحية بحيث التسمت شخصية الأمير عبد القادر بالالتزام

بالعقيدة الإسلامية، والتي لا تتحدد فقط في إيمانه الديني الذي جعل منه رجلا قويا ساميا، وإنما في انطلاقتها السخية التي تخرج من الكائن نفسه بحثا عن جمهورية الناس التي يحلم بها الفلاسفة، إنها الفكر والعمل والكلمة والفعل في شكل كيان يشد بعضه بعضا، مانحا الروح صفاء البلور وشفافيته.

19

ومن سموه الأخلاقي، حبه للتقشف ونبذ مظاهر الترف، بحيث كان يمقت اكتناز الذهب والفضة و أو استعمالها كصنع الأواني الخاصة بالشرب والأكل. لذلك قال "من اتخذ الذهب والفضة آية للأكل والشرب فهو ظالم، وكان أشد من الذي كثرها وادخرها، لأن مثال هذا المثل من جعل حاكم البلد حجاما أو درازا أو جزارا من الأفعال التي يقوم بها أخساء الناس لأن النحاس والرصاص والطين تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ الطين تنوب مناب الذهب، والفضة في حفظ المأكولات والمشروبات عن التبديد وفائدة الأواني حفظ المائعات، ولا يكفي الطين والحديد والرصاص والنحاس في المقصود الذي يراد من الذهب والفضة." ²⁰

فالأمر يتساءل ما الفائدة من استخدام الذهب والفضة كأواني بدلا من الوسائل الأخرى التي عددها، إن فذلك لتبديد وتبذير لم تكن أخلاق عبد القادر فردية محبة لمتعة وزخرف الدنيا يتمتع بجمع المال والذهب والفضة، وإنما كان يرى فيها وسائل عيش تساعد على سد الحاجات الأفراد فحسب، فالأخلاق عنده وإن كانت تتركز اهتماما على الفرد، فإنما تفعل ذلك لإعداده للحياة الاجتماعية وتجعله أكثر استعداد لأداء واجباته فيها. إن الإنسان لا يسمو إلا بالجماعة التي ينتمي إليها." ²¹، لم يكن الأمير عبد القادر يبحث عن الكمال الفردي بل كان يمثل لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث كان على وعي تام بالبعد الاجتماعي لمثاله، فعندما يكون الفرد منارة ساطعة ترشد الشعب فلا بد عليه أن يكون أفضل الناس كي يبذل قصارى جهدي قصد الارتقاء إلى مصاف المصير.

قيم السلم في تصوف الأمير عبد القادر ونزعتة الإنسانية:

كان الأمير عبد القادر نموذجا فريدا بمواقفه الجهادية وبجهوده الإنسانية وبإسهاماته العلمية كقائد مقاومة وزعيم أمة، ومؤسس دولة وعلم من أعلام الإسلام في العصر الحديث، ولما كانت السامية في قلوب أبناء الجزائر، وفي قلوب من عرفه، وكانت له به صلة من أبناء الأمة العربية الإسلامية وغيرهم

من أبناء الأمم الأخرى التي جعلت لفكر وسلوك الأمير عظمة وخلودا، لما كان له من مشاركة مشرفة في حركة النهضة العربية التي تبدوا في صور مختلفة من ذلك.²²

1. إسهاماته العلمية من أجل إبراز الصورة الصحيحة للدين الإسلامي ومواقفه العملية: غيرة عليه ودودا عن حياضه.
2. استجابته الصادقة لنداء الأمة المحكومة بسيف الغزو الصليبي واضطلاعه بأعباء التصدي لأعدائها ودفع غيلتهم عنها.
3. حرصه على تأخي المسلمين ووحدة صفهم، ونبذ كل أسباب التفرقة فيما بينهم، وحضهم على التسامح وحسن المعاملة مع كل من يسكنهم من أبناء الملل والنحل الأخرى.

"وان موقفه الإنساني في إطفاء نار الفتنة التي اندلعت ما بين المسلمين والمسيحيين بالشام، لا ينسأه له التاريخ، وقد استطاع الأمير بهذه الخصال الإنسانية النبيلة أن يجمع في جهاده ما بين التصدي للغزو والصليبي الفرنسي بسيفه في ساحة المعركة، وبين إسهامه بالقلم عن طريق الكتابة في عملية تجديد الفكر الإسلامي، وإيقاظ المسلمين، ويمكن اعتباره بحق بهذه الخاصية الجهادية نموذج المبكر في تاريخ الفكر الجزائري الحديث الذي جسده بكل قوة وصدق ووضوح ذلك التلاحم ما بين الدين والوطن.²³ وقد أعده بعض الباحثين بهذه المميزات واحدا من أبرز أعلام البقطة العامة في العالم العربي الإسلامي وفي العصر الحديث، يعد الأمير نموذجا للإنسان الحضاري على مستويات عديدة بحيث أن محاربه للعدو الفرنسي بالسلح عبرت عن وعيه ونبهه الأخلاقي. فقد كانت أحكامه قائمة على قوة القانون العادلة أي يحتكم إلى الواجب الديني الإنساني حيث قال:

وقد سرت فيهم سيرة عمرية وأسقيت ظاميا الهداية فارتوى

وإني لأرجو أن أكون أنا الذي ينير الدياجي بالسنا بعدما لوى²⁴

لقد كان هاجسه في هذا التطلع لبلوغ الصفاء الأخلاقي الذي يعطي للإنسان قدوته فهذا الصفاء كان أرضية لكل تقدم نحو الكمال وسمو الأخلاقي غايته ارتقاء من شأن الإنسان وإعطائه حقه في الكينونة بدلا من التزمت والتعصب الأعمى. فوطنيته لا تنفي إنسانيته أي أن هذه الوطنية هي

جدل تكاملي مع الإنسانية بحيث يمكن اعتباره نموذجاً لتأصيل لحقوق الإنسان وقد تجلى ذلك في تعامله مع الأسرى بحيث أنه سعى جاهداً إلى أنسنة الحرب humaniser la guerre

لم يكن أسرى الحرب في نظره خصوماً عز لا يرتبط مصيرهم بالمعاهدات الدولية أو بالقوانين التي تنص على المعاملة بالمثل، فهم ضيوف تعساء لهم الحق في الشفاعة، بحيث لم يبالغ الأمير لما كتب للملك لويس فليب "لم نقم أي تمييز بين الأسرى وفرقتنا فيما يتعلق بالأكل والمبيت بل أكثر من هذا لهم امتياز يتمثل في حصولهم على اللحم والقهوة وأشياء أخرى." ²⁵ كما كان يوزع عليهم شيئاً من المال. لم يكن الأمير يكتفي باحترام القناعات الدينية للأسرى، كان يأمل في أن يسهل لهم ممارسة طقوسهم وتأمين حضور مرشد كاثوليكي يبعث السكينة في قلوبهم، حيث طلب من الأسقف ديبيش (1841) أن يرسل إليه أحد القساوسة "لن ينقصه أي شيء، فسأحرص على أن يبجل ويحترم من قبل الجميع في كنفنا كما يقيم بمقام رجل في خدمة الله وتمثيلهم، سيؤدي الصلوات مع الأسرى وسيواسيهم، كما يمكن أن يرسل ذويهم وهذه الوسيلة يمكنهم من الحصول على المال والثياب والكتب وبكلمة واحدة كل ما يرغبون فيه، والذي من شأنه أن يحقق من وطأة أسرهم" ²⁶

فالأمير يحترم في الأسير الإنسان وحرية فكره وحرية معتقده أنه كان يحترم الحق الطبيعي للإنسان لذا جعل رعاية الأسرى تحت كفالة المقربين إليه، لقد كان بومحدي هو أفضل ملازمي الأمير، إذ كفله برعاية الأسرى بالصفح والرفقة على من أرادوا الفرار والحلم عليهم.

أما الأسيرات فقد كن "في كفالة لالة الزهرة وهي أم الأمير، لأنه كان ينظر إليهن الأمير على أنهن ضحايا بريئة للحرب. وقد سجل كل من لأكروا مانوسى لطافة ورفق لالة الزهرة والعناية التي كانت تحيط بها أسيراتها على الدوام، فالأسيرات كن يسكن في خيمة خاصة، بالقرب من أم الأمير وغداة تبادل الأسرى، قدم الأمير إلى الأسقف ديبيش هدايا تمثلت هذه في هدايا "إرسال قطعاً من الماعز مع صغارها فيها يمكنك أن تطعم الأطفال الصغار الذين تبنتهم والذين ليست لهم أم" يتعلق الأمر بأطفال فرنسيين يتامى الحرب." ²⁷ فهو وافقه حتى مع العدو الذي اغتصب الأرض، قتل وشرذ الأبرياء تم عن مروءته وحلمه وسمو الأخلاقه الذي كان يرفعه عن كل أساليب الدينونة والأفعال الشريرة. ذلك انه كان يبغني بعث روح المحبة والتآخي بين أفراد المجتمع الواحد، وكذا في تعامله مع غيره من غير ملتة، أي مع عدوه فلقد كان يؤمن بوطنه الصغير الذي يحدد ملامح هويته، والذي يعمل على الدفاع عنه،

محاربة الأعداء لتحقيق حريته ويحافظ على قيمه وعلى هويته، كما يؤمن باتتمائه للوطن الأكبر وهو وطن الإنسانية جمعاء، وهذا ما عبرت عنه سلوكا ته وإحسانه للأسرى كما سبق الذكر، معاوته في إطعام الفقراء في بروصا ومواقفه في الدفاع عن حرية الاعتقاد.

التسامح الديني عند الأمير عبد القادر:

لقد كانت الشريعة الإسلامية منملا لقيم السلم والتسامح الديني تشبع به قلب وعقل الأمير عبد القادر جعله قدوة لغيره في بث قيم السلم والتسامح التي دعا إليها الإسلام حيث يقول "كثير ما يورد مبتورا تكذيب البعض (الرسول) وتصديق البعض قصورا ولو أصغى إلى المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا"²⁸، فاختلاف في العقائد في نظره لا يمنعهم من أن يكون إخوة، ويقول أيضا "إن رد المسيحيين على اليهود هو الرد نفسه الذي وجه للمسيحيين فما قاله المسيح هو نفسه ما قاله الرسول، ما جئت لأبطل الإنجيل والتوراة، وإنما جئت لأكملها ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة، وفي الإنجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة. وأنا جئت بالسياسيتين جميعا، حيث بالقصاص ولكم في القصاص حياة، وجئت بالعفو وأن تعفو أقرب إلى التقوى خذ العفو وأمر بالعفو وأعرض عن الجاهلين هو إشارة إلى السياسة الباطنة الخاصة. وهذا دليل على أن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. لأن النبوة حكمة والحكمة إما عملية أو علمية أو جامعة بينها..."²⁹

ففكر الأمير عبد القادر يعبر عن رؤية بوحدة الأديان فجوهر هذه الأديان واحدا، يتجلى في وحدانية الله، الله خالق العالم، الله خالق جميع الكائنات دون علة، القدرة التامة. فكل منها حملت أحكاما وإلا جاءت الأخرى فنسختها ليس لإبطالها وإنما لتكميلها، وهذا ما عبر عنه فالشرائع تتكامل في الباطن وإن اختلفت في الظاهر. لهذا فإن مقاومته انبتت على أساس إنساني فرغم بشاعة الحروب وقساوتها إلا أنها تشبع بالقيم السامية، وقد عبر عن ذلك الأمير في سلوكه وفي قوله من خلال مراسلة حيث كتب ليون روش 1844 باسم بوجو رسالة تنطوي على ألفاظ مأكرة اضطر الأمير إلى الرد عليه بنبرة ساخنة "إنك تدعوني إلى إيقاف حرب تزعم أن ديني والقوانين الإنسانية تستهجنها إني على دراية بما يأمرني به ديني، وليس المسيحي هو الذي يلحق المسلم معنى القرآن. أما الإنسانية فيحسن بك أن تنصح الفرنسيين أولا باتباع النصائح التي يسدونها إلى، ترى من هم الذين يخترقون قوانين

الإنسانية أهم أولئك الذين اجتاحت جيوشهم³⁰ بلاد العرب الذين لم يهينوهم، والذين حولوا بيوتهم إلى خراب.. أم أولئك الذين يحاربون من أجل ضد العدوان القائم وتحرير بلادهم من نير الغزاة." ³¹

لقد كانت محاربتة للعدو الفرنسي منبثقة من صفاء روحه وسمو أخلاقه التي كانت تنبذ الظلم والاستبداد والاستعباد. وهذا ما جسده خصاله الأخلاقية التي تفوح بروح التسامح والرحمة والحلم في أحداث دمشق في ماي 1860 حيث علم بالمؤامرة التي كان تعد لها بعض الأطراف الأجنبية : فرنسا وإنجلترا أحدها تدعم الدروز والأخرى المارونين فباستغلال الصراع التي تؤدي إلى اضطرابات دموية يكون التدخل الأجنبي المسلح، فإن هذه المجازر كانت ستتم تحت أمرة الحاكم التركي بدمشق الباشا أحمد، وقد أدرك الأمير بتبصره السياسي المحركات الدسيسة الخاصة بمشروع الشرق الأوسط، وحاول التصدي له، عمل على إيقاف المجازر التي كانت تبيد المسيحيين حيث كانت تنادي بالموت للمسيحيين، إذ جمع في بيته المسيحيين حيث كان ينادي في الشوارع "أيها المسيحيون تعالوا، أنا عبد القادر بن محي الدين تعالوا سأحميكم، وقد بلغ الملتحقين بيته حوالي سبعة مائة شخص وقد تحول منزله إلى ملجأ للمسيحيين، غير أن انتشار الخبر قد استغله البعض للاحتشاد أما م بيت الأمير والمطالبة بالمسيحيين. فعلى الرغم من محاولته لرد واقناع الناس بالعدول عن أفكارهم وأفعالهم المتوحشة إلا أنه لاحظ من عدم جدوى ذلك، لذا فاستقام متحدياً قائلاً: "المسيحيون؟ لن تناولوا مسيحياً واحداً طالما ظل جندي من جنودي حياً، إن المسيحيين ضيوفي يا قتلة النساء والأطفال. هيا حاولوا أخذهم وسترون كيف يحسن جنود عبد القادر القتال أقسم بالله بأننا سنجاهد من أجل قضية مقدسة التي جاهدنا في سبيلها من قبل هيا قارة محمد التي بالأسلحة والجواد." ³²

وهكذا يماثل الأمير عبد القادر بين جهاده من أجل وطنه وحرريته، وتصديه لبني ملته في الدين من أجل نصره الحق والإنسان فرغم أن القضية الأولى كانت ضد الصليبيين والتصدي لعدوانهم والقضية الثانية كانت في التصدي للمسلمين وظلمهم للمسيحيين. فالقضيتين بالنسبة للأمير عبد القادر لا تختلفان لأن وسيلتهما هي القمع والعنف (القتل) محرهما هو الظلم ونبذ الإنسانية وحرية الإنسان في الفكر والمعتقد، لذا فكلمتهما اعتبرهما مقدسان ويجب محاربتهما فهو قد حارب التعصب والفوضى، والظلم وقمع الحرية وهكذا فقد سجل له إنقاذ اثني عشر ألف مسيحي.

وقد أظهر مقاصده الأخلاقية في رسائله التي رد فيها عن الذين عبروا عن امتنانهم لما فعله يقول الأمير في رده على السويسري أنبارد غداة أحداث دمشق "أما فيما يتعلق بقولكم يا صديقي حول

تناهي إلى الصحافة في شأني، فإني أقول لكم بأنني أكن عناية وتسامحا جبا للناس الأمر الذي يجعلني أجنح إلى احترام جميع الناس مهما كان معتقداتهم وديتهم، بل إني أذهب إلى حد حماية الحيوانات ولا أرغب في إيذاء أي كان بل على العكس أسعى إلى خيرهم. إن الله خلق الناس كي يكونوا عباده لا عبادا لغيرهم ولكن للأسف أرى في زماننا هذا أن أولئك الذين أوكل إليهم أمر قيادتهم، إذ جعلوا منهم عبيدا، وبدل أن ينجحوا إلى نجدة الفقير وحماية الأرملة واليتيم يستولون على ممتلكاتهم ويسخروهم لإرضاء نزواتهم.³³

فالأمر من خلال هذه الرسالة يحدد أهم المبادئ الموجودة في فكره، والتي آمن بها كما هو يدعو لها وهي حرية الفكر والوعي، الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، فتصفوه تحكمه أبعاد سامية تسعى أن ترتقي بالإنسانية إلى مكانة متعالية من سمو الأخلاقي، لأن دور الإنسان في هذه الحياة مهما كانت ملته أو اعتقاده هو التعمير وليس التدمير، والارتقاء بالعقل وليس الاستعباد للنزوة والهوى حيث يستبد بأخيه الإنسان ويسلبه حريته وحقوقه، بل يجب أن تكون المحبة والرحمة هي نبرسه والحلم والغفو والتسامح هي التي تحركه والتكامل والتلاحم من أجل البناء والتعمير وليس التدمير غايته.

فبحكم هذه الغايات الإنسانية التي تحكم فكر وسلوك الأمير عبد القادر ظل خالدا، وقدوة لسمو الأخلاقي ومنهلا لدراسات الإنسانية لكي تستكشف أبعاد فكره حتى تكون منها حياة .

من أهم النتائج التي التوصل إليها من دراسة فكر الأمير أن الإنسان هو رسول عقيدته، وفكره من خلال المنهج الذي يحدده لسلوكه، فحتى ولو كان رجل قتال أو حرب، فذلك لا يعني ابتعاد عن الحكمة بحيث تحكم الهمجية والوحشية سلوك الفرد، إذ يجب دائما احترام الذات الإنسانية والتعامل معها بهذا المبدأ حتى، وان كانت عدوا لي، كما لا يجب التفاوض عن الواجب اجتماعي وأخلاقي، أينما حل ووجد فهو مدعو لمساعدة أخيه إنسان تلك هي قيم الإسلام والتي عمل على تجسيدها في تعاملها وكان سفيرا لها، وبين عالميتها لإن أساسها احترام حق الإنسان في الحياة، لذلك سجل له التاريخ أنه كان رائد من كبار رواد النهضة الإسلامية والتي شرع فيها في القرن 19 ولو قيص له مواصلة تجربته الرائعة في كنف السلم لقد جعل الجزائر في طليعة الشعوب الإسلامية.

وهكذا جمع الأمير عبد القادر ذويه وأعدائه القدامى في عبادة قيم مشتركة قيم السلم والتسامح .

لقد استمرت هذه الدعوة لمحاربة العدو بالقيم التي جاهد من أجلها الأمير عبد القادر نصر الإنسان والإنسانية وفق قيم السلم والتسامح التي دعت إليها الشريعة الإسلامية وهو ما حاولت أن تركز له الصحف الطرق الصوفية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي. يبتث روح التسامح في قلب المسلم عامة والجزائري خاصة ودعوته لتأدية الواجبات الدينية، بل و حتى الاجتماعية بمراعاة القيم الإنسانية «احترام الإنسان في ذلك. أي حتى يؤدي كل فرد دوره في مساعدة أخيه وارتقاء بمجتمعه حضاريا، وأخلاقيا وهذا بالتزام القيم الأخلاقية الفاضلة. بنشر المحبة والتعاون ، بتلاحم وتراحم الأفراد فيما بينهم .

- ¹ Bruno Etienne et François bouillon « ABDEL KADER le magnanime » Hachette France, 1994, P 11
- ²:Charles Henry Churchill, la vie d'Abel el Kader, introduction et notes de Michel Hobart, SNED, Alger 71P 47.
- ³: جورج الطريشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1987، ص 260.
- ⁴: الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبهه. Hobart, SNED, Alger 71P 47.
- ⁴: جورج الطريشي، معجم الفلاسفة الغافل، مكتبة الخانجي دار البقطة للطباعة والنشر بيروت، دط س، ص 11.
- ⁵: المصدر نفسه ص 41.
- ⁶: الأمير عبد القادر، الموافق في بعض اشارات القرآن الى أسرار والمعارف ج 2، حققه عبد الباقي مفتاح، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، "ط1، 2005، صص 12، 13.
- ⁷: فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا أ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط 1985، ص 115-114.
- ⁸: الأمير عبد القادر، الموافق ج 1 في بعض اشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف صفة عبد الباقي مفتاح، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص 35.
- ⁹: محمد الشريف سجلى، الأمير عبد القادر فارس الإيمان ترجمة محمد يحياتن، منشورات ANEP الجزائر، 2008، دط، ص 60.
- ¹⁰: المرجع نفسه، ص 60.
- ¹¹: فؤاد السيد المرجع السابق ص 115 - 116.
- ¹²: الأمير الموافق -الموقف 83 ص 159.
- ¹³: الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، ص 41.
- ¹⁴: عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1992، ص 238.
- ¹⁵: عثمان سليمان، الأمير عبد القادر في بلاد المشرق (ملحق بكتاب 10 سنوات في أرض الإسلام، ط1، 1022 للجاسوس ليون روش، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران، ص 121-130.
- ¹⁶: المرجع نفسه ص 139
- ¹⁷: لأمير عبد القادر، الموافق ج 1 ص 78
- ¹⁸: محمد الشريف سجلى، الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ص 54.
- ¹⁹: محمد الشريف سجلى، المرجع نفسه، ص 63.

- 20: الأمير عبد القادر، ذكر العاقل، ص 82-83.
- 21: المرجع السابق ص 38.
- 22: محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري الحديث، النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر مؤثراتها، بدايتها مراحلها ومطبعة الكاهنة الجزائر، دط، 2003، ص 83.
- 23: المرجع نفسه ص 84.
- 24: عشراي سليمان، الأمير عبد القادر الشاعر، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 58.
- 25: محمد الشريف سحلي، المرجع السابق ص 107.
- 26: المرجع نفسه ص 101.
- 27: المرجع نفسه ص 110.
- 28: الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل ص 103.
- 29: الأمير عبد القادر، ذكرى الغافل، ص 102-103.
- 30: محمد شريف سحلي، المرجع السابق ص 114.
- 31: المرجع السابق، ص 114.
- 32: محمد شريف سحلي المرجع السابق ص 122.
- 33: محمد شريف سحلي المرجع السابق ص 132.